بكائية على ابواب القنيطرة

نافل سلام

على ابواب القنيطرة المحررة !!
وقف الفاتح الامريكي . .
وستمر العربة باقصى سرعتها في شوارع مخيم اليرموك ..
وفي بعضه الدم تشرق المقاومة دائما .

□□□

أعطني جرعة النوم .. كي ارتخي
تحت ضوء المصابيح ..
في مدخلٍ لا يؤدّي
الى غرفةٍ لطختها السكاكينُ والخطبُ
الوطنية ..
في « المزة » العربيةِ ..
مرَّ يزيدٌ .. يوزّع في الشام اتباعَه . .
وعلى عتبة الجامع الامويّ ..
وقفْتُ غريباً
احدّقُ في جثتي ..
مرّ بي فرحُ الحلو ..
يرسمُ فوق الحياطين وجهَ دمشقَ
المبلّلِ بالخوف ..
قمتُ .. انتفضتُ من الموت ..
ما عاد بين دمشقَ .. وبين فلسطينَ
غير الخيول التي عبرتْ بردىً ..
وجيوشُ العروبةِ ..
نائمةٌ في الاذاعةِ ..
مثل الارانب .. جالسةٌ في المقاهي
تشدُّ مسابحَها .. تلعبُ النردَ ..
فصلٌ جديدٌ من الارتباط ..
يُقفلُ على مدخل العاصمةْ ..
اعطني جرعة النوم .. كي اتقدمَ
في حُلمي .. خطوةً .. وأُغتي دمي
وهو يُصلبُ في ساحة الشهداءِ ..
وكانت تُعلقُ فوقَ السطوح ..
رؤوسُ قرامطةِ العرب القدماء
ببغدادَ .. كانت تُعلق فوق السطوح
رؤوس قرامطة العرب القدماء
على مدخل الكوفة العربيةِ ..
كانت تُعلّقُ اسلحةٌ .. واصابعُ
والخلفاءُ ينامونَ ..
في نومهم يحلمونَ ..
ينامونَ .. يفتحونَ القصورَ ..
الخرائطَ ..
والمدنَ العربيةَ ..
واحدةً .. إثر واحدة ..
بين ايديهم يسقطُ الوطنُ العربيُّ ..
باجمعه
وعلى مدخل العاصمةْ ..
شرِبتْ فاسيونُ الخيانةَ مرغمةً ..
وبكتْ .. وسطّ زحفِ الاناشيد والخطب
الوطنيةِ
يا فاسيونُ افتحي ..
جرحَك المتلفّعَ بالثورةِ العربيةِ ..
والتحفي بالشواطئِ ..
ما نامَ في بردى ..
الوطنُ العربيّ ..
ولا سكنتْ في دمشقَ ..
خيولُ العواصفِ
الرومُ ناموا هنا ..
وعلى نخلِ دجلةَ ..
عشّشَ الفرسُ اعلامَها

... ثم انه جاءت لحظة الانطلاق
فقلت في سرك :
ـ يا رب ... وفقنا في مهمتنا الانتحارية .

ولكنك تذكرت على الفور بمجرد اكتمال الكلمات في سرك ان السماء محايدة ... دائما تبقى على الحياد مع ان آلهة مثل الحياة يحتاج الى شيء من الحظ الحسن ... وحين تذكرت ذلك اجفلت وسرت في جسدك ارتعاشة ايقظت في وجدانك رائحة بداية الاشياء .

« كانت القرية الصغيرة ملفوفة بظلال ما قبيل الفجر ... الظلال التي تلغي حدود المسافات بين الاشياء ، وتخفي تفاصيل ملامح البشر ... وانفجرت قذيفة هاون في فناء الدار ـ فيما بعد قالوا لك انها قذيفة هاون ـ اضاءت وانفجرت في ان واحد ... جعرت البقرة الحمراء المربوطة في الفناء ثم وقعت على رجليها الاماميتين ، وصدر عن عنقها العريض المتدلي شخير حاد ، وبعد ذلك همدت البقرة الحمراء بلا حراك .. دون ان يتاح لعنقها المذبوح ان يفلت من الحبل المربوط طرفه الاخر في وتد بالقرب من الجدار ... وحين افقت من تلك الحالة بين النوم واليقظة والدعر والطمانينة ... حين افقت كان والدك يحملك بين ذراعيه وهو ينحني عليك بقامته الطويلة المهزومة ، ويتمتم وهو مملوء بالارتعاش :

ـ يا رب ... الطف يا رب . ـ

كانت السماء محايدة حتى لقد انطبع في ذاكرتك البكر كل شيء بالتفصيل ، وحين طلبت في نهاية اليوم الاول طعاما قالوا لك :

ـ لسنا في دارنا ... ثم لا يجب ان تبكي ... تعرست عيناك التي تحمل بصمة الدعر الاولى في وجه ابيك وفي وجه امك وفي الوجوه الاخرى ، لم تجرؤ على البكاء رغم الجوع ، ولم تجرؤ على الارتماء في حضن امك رغم قشعريرة الخوف ، بقيت واقفا على الحافة تمنع نفسك من السقوط ، وها انت الان تقف على الحافة تمنع نفسك من السقوط »

ـ ممنوع الاستسلام مهما كانت الظروف .

القائد العسكري المسؤول هو الذي يتكلم ، واكتملت عندك لحظة الصحو ... كنت تقف بين رفاقك الاربعة افراد المهمة الانتحارية ... اثنان على يمينك واثنان على يسارك وانت بينهم في الوسط ... واكتملت عندك لحظة الصحو فانت قائد الدورية الانتحارية

ـ ستصلون مع الدليل الى بعد ٤ كيلو مترات من المستعمرة . . . هناك تكمنون حتى حلول الليل ، وتبدأون بالتقرب بحذر شديد من الشارع المؤدي الى المستعمرة ، تودعون احدى السيارات وتقتلون من فيها ثم تستقلونها الى داخل المستعمرة حيث تبدأ مهمتكم ... مهمانكن المفاجأة فالاستسلام ممنوع على الاطلاق .

لحظة صمت ، ارتخت ملامح وجه القائد العسكري ، كان قد بذل كل ما لديه من جهد حتى لا يسيل الحزن في العينين .... طالت لحظة الصمت وانت ترسل نظراتك الحميمة الى وجهه .... اهتزت شفتاه المزمومتان وتكونت على حافة جبينه نقطة عرق .. وتذكرت انت ان عليك ان ترحمه من الانحدار في هاوية الجزن الاخاذ . . . وابتسمت وانتصر الزمنُ الكافرُ ..
انتزعتْ خيرُ الراية العربيةِ .. بيضاءَ
يا فاسيونُ افتحي جرحَك المتلفّعَ بالثورةِ
العربيةِ ..
ما نام في بردى .. فرحُ الحلو ..
ما زالَ يرسمُ فوقَ الحياطين ..
وجهَ فلسطينَ ..
ما زالَ اخضرَ .. وجه فلسطين . .
اخضرَ .. احمرَ ..
والشرقُ يفتحُ ابوابَه للصقور الغريبة ..
والجوعُ يزدهرُ الجوعُ للثورةِ العربيةِ ..
ما زالَ وابلُ الحسين ..
تطوفُ به الفقراءُ ..
الشوارعُ .. في كربلاءَ الصغيرةِ ..
حزنُ النساء الجميلاتِ .. في كربلاءَ
الصغيرةِ ..
يفتحُ للبحرِ ابوابَه ..
بردى امرأةٌ لا تخافُ ..
وعينا دمشقَ الاميرة ساهرتان ..
وسوفَ تجيءُ الرياحُ محمّلةً ..
بالبنادقِ .. والعمرِ ..
نحنُ نزفنا .. على حائطِ الجامعِ
الامويّ دماً اخضراً ..
وكتبنا دماً أخضراً .
ومشينا على دمنا ..
ولكنّ ما يكون ....

هذه خيولُ .. الانَ .. واقفةٌ بيننا ..
وعلى مدخل العاصمةْ
وقف الحارسُ العربيّ .. يُفاوض ..
مرتخيا .. في يديه الحمامةُ والغصن
والرمحُ في ظهره .. الحبرُ .. جفّ
في القلم الحبرُ ..
وامتلأتْ عينُ بافا اليتيمةِ بالدمع ..
ما نامَ في بردى الوطنُ العربيّ ..
ولكنّ عاصفةَ الحزن من بردى ..
عبرتْ في قرى الوطن العربيّ ..
وألقتْ على كلّ صارية ..
عبرتْ .. لعنةْ ..
بصقتْ في وجوه المذبحين
والشعراءُ منْ ومنْ كتبوا ..
في المجلاتِ .. انّ دمشقَ قد انتصرتْ ..
حينَ كانت مدافعُ خيرَ تعوي على
مدخل العاصمةْ ..
ارتجفَ العلمُ العربيّ .. بالوانِه ..
الاحمرِ .. الابيضِ .. الاخضرِ
الاسودِ ..
الانجم الاثنتين .. الثلاثةِ ..
والسيفِ .. صارَ الهلالُ كقرطِ موز
وصارتْ رؤوسُ المدافعِ .. أحذيةً
في جنيفَ ..
عُصبةٌ يهشّ بها فرحٌ .. فجّرتْهُ
الاناشيدُ في بردى ..
وانتهى موسمُ الحربِ .. ذقنَ طبولُ
جنيفَ
ونامت على شاطيء الابيض المتوسطِ ..
أحزانُ فيروزَ ..

حزيران ١٩٧٤

السماء تقف على الحياد

■ يحيى رباح ■

... نعم اتسمت « منذ تلك اللحظة التي عرفت فيها انك يجب ان لا تبكي ، تعلمت الى اقصى مدى ان تبتسم في لحظة ما قبل البكاء » واندفعت في شرايينك ريح قوية ... فقدمت خطوتين الى الامام وقلت بصوت ثابت :

ـ عاشت فلسطين ـ

قال بشير تشبه نبرات صوتك

ـ عاشت فلسطين ـ

قالها وانتظر لحظة ... لحظة انتظار مثل تلك التي يصادفها المقاتل حين يتحسس بطرف قدمه موطنا يمكن ان ينفجر فيه لغم ... لحظة انتظار كي يحدث الانفجار او لا يحدث الانفجار .

ـ طلبي الاخير ان تحكم الحزام القاسف حول وسطي .

طلت عيناه تنظران باستقامة من فوق شعر راسك حتى لا تلتقيان بعينيك ... بينما تحركت يداه في ايقاع خاص تحكم وضع الحزام القاسف حول خاصرتك ، وحينئذ صرت خفيفا مثل النسمة ... وقويا مثل الريح ...

وطيبا مثل الغيوم المحملة بحبات المطر الاولى .

الاسم :
بشير عبد الجواد
السن :
لا احد يعرف بالضبط والدتك قالت انك ولدت في بداية الصيف اثناء حصاد الشعير ، ووافقها والدك على ذلك ، ولكن في اي عام ؟ هذا ما يختلف فيه الجميع ، والدتك تقول انها كانت لا تزال ترتدي ملابس الحداد المصبوغة باللون الكحلي حدادا على خالك الذي اعدمه الانجليز رميا بالرصاص ، ولكن

« حين اخبرتها انك اصبحت فدائيا خطر على بالك الموت ، فقلت في سرك ، مسكينة امي ، اذا مت تكون هي قد فقدت الاصل والامتداد ، ولكن ربما من كثرة الالم تتعود امي عليه فلا يعود يؤثر عليها شيء . »

صفات مميزة :
ذاكرة تحفظ ادق التفاصيل ، وفيما بعد حين كانت تكتمل العائلة وتجيش الذكريات مثل تدفق السيل الكبير ،

هذا لا يفيد شيئا ، فان والدتك ظلت دائما تصبغ باللون الكحلي ثيابها ذات الخطوط الحمراء والخضراء العريضة ، وكان اللون في ايام الغيظ والعرق الغزير ينطبع على لحم بدنها وساقيها ، وهي لم تتقطع عن فعل ذلك مطلقا .

المواصفات :
تشبه خالك الذي اعدمه الانجليز تمام الشبه ، ذات يوم شربتك والدتك بنظرة طويلة من عينيها ثم انها اجهشت بالبكاء ، وسألتها

ـ لماذا تبكين ؟

فقالت :

ـ تذكرت خالك الله يرحمه ، انك تشبهه تماما ... الخالق الناطق ... جبينك ، عيناك ، والشامة التي صحن الخد الايسر

كنت تشارك في الحديث عن تفاصيل الماضي البعيد « ذات مرة كان الحديث يدور عن واقعة موغلة في البعد والاسطورة الواقعة التي تحكي عن رجل يهودي غرق في غدير يقع على حافة القرية ، ومن يومها لم يعد احد من الاطفال يلعب في ماء الغدير الرقراق ، لان اليهودي عندما غرق في الغدير صار الماء سما ، امسكت انت بطرف الحديث ، ثم انك اسهبت في سرد التفاصيل فقال والدك :

ـ يا ولدي ... الحادثة وقعت قبل مولدك بعشرات السنين دارت عيناك بقلق في وجه الحاضرين ، ثم انك اقسمت انك تذكر الحادثة جيدا هل يمكن ان يحدث مثل هذا التداخل الخاص بينما تذكره وبين ما هو منقوش على لوحة الماضي البعيد ؟

عرفت بعد ذلك ان هذا ممكن . حين يكون الماضي هو الجذع الوحيد الذي تنشبث به حتى لا يحرفنا التيار الى هاوية المنفى السحيقة ، في تلك السنوات الاولى من النفي كانت الدعوات الى السماء تتصاعد مثل حبل النجاة ثم تنقطع ، ثم كف الجميع عن الدعاء . فقد ادركوا ان السماء تقف على الحياد .

قال الدليل ذو الوجه الرفيع والقدمين الحذرتين « سأعود الان ونفكم الله » ومديده النحيلة وسلم عليكم واحدا وراء الاخر ، وحين سحب يده من يدك صار واحدة من تلك التفاصيل التي تغور في الذاكرة مثلما تغور نقطة ماء في جوف ارض رملية ، واقتربت نقطة البداية من نقطة النهاية . واوشكت دورة الحياة ان تكتمل .

ترحف تتقرب من الطريق . وهم الاربعة رفاق المهمة الانتحارية . يرحفون وراءك ويتقدمون . انت الان نقطة في محيط واسع يشمل الكون كله . الاشياء داخل المحيط تبدأ ولا تنتهي . الاشياء التي كانت منسية تضيء في الذاكرة بنعومة مثل سربان الاحلام الجميلة الحزينة ... ترحف ... تتقدم ... تصبح نقطة في محيط اضيق ... تصبح على بعد امتار من الشارع ... تثب وتنهض على قدميك وتتوسط الشارع وتطلق رصاص مدفعك الرشاش ... وتتطلق النقطة على ذاتها مثلما الملامسة والانفجار .. تنحرف السيارة عن الشارع محدثة صوتا صارخا ثم تنقلب ... طلت نيران مدافعهم الرشاشة تنهال عليها ، وفي خضم حالة قريبة من الذهول طل بشير عبد الجواد يحدق في عجلات السيارة التي تدور في الفراغ ، سرعتها تخفت بالتدريج ثم تنطفيء . غمرت المنطقة اضواء كاشفة جاءت من جهة المستعمرة ... وافاق بشير عبد الجواد من ذهوله على صوت واحد من رفاق الدورية :

ـ انهم يقتربون ،

اندفعوا الى الجانب الايسر . .. واختفوا داخل منطقة حرشية ، وكان الرصاص الذي يطاردهم يصطدم بفروع الحرش المتشابكة ... قال لهم عندما توقفوا بضع لحظات :

ـ عليكم بالانسحاب ... وانا ساغطي انسحابكم

ـ ولكن ....

ـ كنا نوشك ان نمسك بالموت لكنه افلت ... لم يعد ممكنا ان نفجر انفسنا في الفراغ .

كان يتحدث اليهم وهو يبعد عنهم بضعة امتار ... لم يكونوا يرونه .. لكن صوته الامر الحزين سكنهم الى حد الانصياع .. توهجت في سماء الحرش ... ثلاث قنابل تنوير ... كانت كرات اللهب المشعة تهبط قليلا قليلا ... فتستطيل ظلال الاشجار وتتراقص كانه الجنون ... تحركوا وسط الظلال المتراقصة ... وبدأ بشير عبد الجواد يطلق زخات متقطعة من مدفعه الرشاش .. كان يستدرجهم اليه ...

رفاقه يبتعدون وهو يقترب .. الحزام القاسف يضغط على خاصرته كانه النبض ... سلك رفيع وسلك رفيع اخر ... تحسسهما باصابعه ... ثم اطلق من رشاشه زخة رصاص اخرى ... كان يستدرجهم وينتظرهم ... ساورته الرغبة في ان يلامس السلكين بعضهما ويغلس لحظة الانتظار ، لكنه نفى الفكرة على الفور .

« ذات يوم كان عائدا من المدرسة التي تبعد عن المخيم سبعة كيلومترات .. لم يكن يملك نقودا ليدفع اجرة ركوب احدى السيارات ، فسار على قدميه وهطل المطر ... مطر غزير ، وكانت الريح ساكنة ، وساورته الرغبة في ان يسرع الخطى ... ان يجري ... ان يفر من نقاط المطر الكبيرة ... لكنه نفى الفكرة على الفور ، واستمر يسير بخطوات هادئة ، تخلل المطر شعر رأسه وملابسه ، ووصل الى لحمه ، وسرت البرودة في عظامه ... وعندما وصل الى الكوخ الذي يسكنونه في المخيم ، دخل بهدوء ... كان ساخطا على كل شيء في الارض والسماء الى درجة لا يمكن التعبير عنها الا بالصمت . .. وكانت امه رحيمة معه في ذلك اليوم حين لم تقل له شيئا . »

صار الرصاص يقترب منه ... تتناثر التربة على ملابسه ، وكان صوت خطواتهم يقترب منه ... حبس انفاسه وانتظر حتى صارت ظلالهم في دائرة الرؤية فضغط على الزناد ... سهم ناري من الرصاص ثم دوى الانفجار ... وقالوا عندما وصلوا ان الريح الغربية حملت اليهم رائحة لحمه المحزق ودوى الانفجار .

صدر حديثاً

● اصدرت الجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج العربي مؤخرا عن دار الطليعة مجموعة دراسات . فضمن سلسلة دراسات ٩ يونيو صدر لها ١ ـ فطر الاستعمار الجديد والانقلابات . ٢ ـ الثورة العمانية ١٩٥٧ ـ ١٩٥٩ . ٣ ـ التناقضات في اتحاد الشيوخ . ٤ ـ الوضع الطبقي في عمان (السلطنة) . وتتناول هذه الدراسات الواقع السياسي والطبقي لمنطقة الخليج العربي بالتحليل على أساس المنهج التقدمي ومهمات الثورة الوطنية التحررية في اقطار هذه المنطقة على ضوء الظروف الخاصة بكل قطر والتي لها سمة مشتركة من حيث اهميتها الستراتيجية وتبعية المشاريع والنظمة الحكم فيها للدول الامبريالية والواقع الاقتصادي المتخلف والبدائي في حين تشكل مركزا بترولياً هاما . ان اهمية نشر هذه الدراسات الان مرتبطة بطبيعة الظروف التي تمر بها حركة التحرر الوطني في الخليج العربي وعمان ، ما تتعرض له من تامر ومحاصرة وما تحاول القوى الرجعية في المنطقة ان تلعبه من دور يستهدف اجهاض الثورة المسلحة ، باساليب التضليل والاستعانة بالقزاة الايرانيين .

كما اصدرت الجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج كتابا سياسيا هاما بعنوان ـ وثائق النضال الوطني ١٩٦٥ ـ ١٩٧٤ .. وهو يعطي صورة واضحة عن خفايا الصراع المحتدم في هذه المنطقة من خلال متابعته لتطور التنسوء الوطني للتنظيمات السياسية والمسلحة وظروف تكوينها من خلال البيانات والوثائق الصادرة منها والتي اسفرت اخيرا عن تشكيل الجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج . وهذه اول مجموعه وثائقية من هذا النوع وتبدو اهميتها ايضا في انها من خلال هذا الاستعراض الوثائقي تعطي فكرة واضحة عن طبيعة منشأ وتطور الحركة الوطنية وعن طبيعة الصراع القائم في هذه المنطقة .